دور علماء الجزائر في خدمة الحديث النبوي

د. حبيب بوزوادة

جامعة معسكر، الجزائر

الملخص :

يمثّل التمسّك بالدين الإسلامي وبعلومه وتعاليمه من أهمّ مقوّمات الشخصية الجزائرية على مدى تاريخها الطّويل، فقد أسهم الجزائريون في خدمة الدين إسهاماً كبيراً، بالتأليف والتدريس، مثلما تؤكّد ذلك شواهد التاريخ المختلفة، ويعتبر الحديث النبوي من ضمن المجالات العلمية التي أثبت الجزائريون تفوقهم فيها، مثلما نحاول عرضه في هذه الورقة التي تستقصي باختصار جهود علماء الجزائر في خدمة الحديث النبويّ.

الكلمات المفتاحية : الجزائر؛ علماء الجزائر؛ الحديث النبوي، التأليف، التدريس

Abstract:

The adherence to the Islamic religion, its sciences and rules is one of the most important elements of the Algerian personality throughout its long history. The Algerians contributed to the service of religion as a major contribution to the authorship and teaching, as evidenced by the various historical evidences. The

المنارة للاستشارات

www.mar

Hadith is considered among the scientific fields in which the Algerians proved their superiority.

Presented in this paper, which briefly investigates the efforts of Algerian scholars in the service of the Prophet's Hadith.

***Keywords*: *Algeria*; *Algerian scientists*; *Hadith, authorship, teaching*.**

مقدمة :

عُرف أهل المغربين الأقصى والأوسط منذ القدم باعتنائهم بكتاب الله عزّ وجل، باعتباره أصل الأصول الذي يربّى عليه المبتدئ، ولا يتجاوزه إلى غيره حتى يحذقه ويمهر فيه، "فهم لذلك أقومُ على رسم القرآن وحفظه من سواهم"[1]، أمّا باقي الأمصار كإفريقية والأندلس والمشرق فإنهم لا يكتفون بتعليم القرآن وحده، ولكنهم يتعلّمون معه الحديث الشريف، أو رواية الشعر، وقواعد العربية وغير ذلك، كما جاء في مقدّمة ابن خلدون.

غير أنّ مهارة علماء المغرب في القرآن لم تمنعهم من التوجّه صوب الحديث النبوي الذي أولوه عناية كبيرة، ظهرت في مدى تعلّقهم بدواوين السنة الشهيرة كالصحيحين والموطّأ على وجه الخصوص، هذه الدّواوين التي كانت تتلى في المجالس والحلقات، ويتنافس الطلاّب في حفظها كما يحفظون آي القرآن، وكتب حولها العلماء عديد الشروح والتعليقات التي تشهد على علوّ كعب كاتبيها ومدى تفوّقهم.

ويصف العلاّمة أبو القاسم سعد الله اهتمام علماء الجزائر بعلم الحديث فيقول: "من العلوم التي أنتج فيها الجزائريون علمُ الحديث ومصطلحُه، فقد اعتنوا به تدريساً وتأليفاً ورواية وإجازة، ولا شكّ أنّ ذلك يعود إلى صلة علم الحديث بالدين وبالتصوّف معاً، كما يعود إلى كون علم الحديث يعتمد إلى حدٍّ كبيرٍ على الحفظ، وهم حفّاظٌ مهرة حتى اشتهروا بذلك منذ القديم. وكان العملُ عندهم بالكتب الستة يدرسونها ويسندونها ويحفظونها، ولكن عنايتهم بصحيح البخاري قد فاقت كلّ عناية"[2]

المنارة للاستشارات
www.mar

وقد دفعني هذا الإرث العلمي الذي اطّلعت على جانب منه إلى كتابة هذه الورقة التي أقدّمها برًّا بأولئك الأساتيذ الذين خدموا العلم الشرعي، وأفنوا أعمارهم في تبليغ هذا الدين العظيم، فالتنويه بأفضالهم دينٌ علينا، ونشر مؤلّفاتهم واجبٌ كفائي لا يسقطه التقادم.

هذا وإنّي تعمّدتُ أن لا أشير إلى جهود المعاصرين -الأحياء خصوصاً- واكتفيتُ بالقدامى، طمعاً في إماطة اللثام عن مخزون علمي هائلٍ، طمره النسيان، وطوته يد الزمان.

أقدم محدّث جزائري:

أبو عبد الرّحمن بكر بن حمّاد التاهرتي (200هـ-296هـ) من قبيلة زناتة الأمازيغية، ولد ونشأ بمدينة تيهرت (تيارت حالياً)، ثم ارتحل إلى القيروان فأخذ عن سحنون بن سعد صاحب المدوّنة، ودخل بغداد سنة (217هـ) والتقى بكبار علمائها كأبي حاتم السجستاني المحدّث، وابن الأعرابي اللغوي الشهير، وبالشعراء أبي تمّام ودعبل الخزاعي وعلي بن الجهم وغيرهم، كما اتصل بخلفاء الدولة العباسية، وثّقه عدد من علماء الإسلام، قال عنه البكري: "كان ثقة مأموناً حافظاً للحديث، سمع بالمشرق من ابن مشدّد، وعمر بن مرزوق، وبشر بن حجر، وبإفريقية من سحنون، وغيرهم"[3]، وقال أبو الحسن العِجْلي: "كان من أصحاب الحديث"[4]، وقال عنه ياقوت الحمويّ: "بكر بن حماد أبو عبد الرحمن، كان بتاهرت من حفاظ الحديث وثقات المحدثين المأمونين"[5].

وقد كان بكرٌ شديد التواضع، فقد ذكر القرطبيّ في تفسيره أنّ بكر بن حمّاد اختلف مع أحد طلبته وهو أبو محمد قاسم بن أصبغ في حديث، وكان الطالب مصيباً، فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه: رَغِمَ أنفي للحق، رَغِمَ أنفي للحق، وانصرف.

وكان بكرٌ يأنف من كثرة رواية الحديث، ويرى أنّ كثرة الرواية مدعاة للكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وكتب أبياتًا يذمّ فيها أهل الحديث الذين يكثرون الرواية، أوردها ابن عبد البر في (باب ذكر من ذمّ الإكثار من الحديث دون التفهّم له والتفقّه فيه)[6]:

المنارة للاستشارات
www.man

قُلْ لابْنِ مَلْجَمَ وَالأَقْدارُ غَالِبَةٌ   هَدَمْتَ وَيْلَكَ لِلإِسْلامِ أَرْكَانَا
قَتَلْتَ أَفْضَلَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمٍ   وَأَوَّلَ النَّاسِ إِسْلامًا وَإِيمَانَا
وَأَعْلَمَ النَّاسِ بِالقُرْآنِ ثُمَّ بِمَا   سَنَّ الرَّسُولُ لَنَا شَرْعًا وَتِبْيَانًا
صِهْرَ النَّبِيِّ وَمَوْلاهُ وَنَاصِرَهُ   أَضْحَتْ مَنَاقِبُهُ نُوْرًا وَبُرْهَانَا
وَكَانَ مِنْهُ عَلَى رَغْمِ الحَسُودِ لَهُ   مَكَانَ هَارُونَ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَا
وَكَانَ فِي الحَرْبِ سَيْفًا صَارِمًا ذَكَرًا   لَيْثًا إِذَا لَقِيَ الأَقْرَانُ أَقْرَانَا
ذَكَرْتُ قَاتِلَهُ وَالدَّمْعُ مُنْحَدِرٌ   فَقُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّ النَّاسِ سُبْحَانَا
إِنِّي لأَحْسَبُهُ مَا كَانَ مِنْ بَشَرٍ   يَخْشَى المَعَادَ وَلَكِنْ كَانَ شَيْطَانَا
أَشْقَى مُرَادٍ إِذَا عُدَّتْ قَبَائِلُهَا   وَأَخْسَرَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مِيزَانَا
كَعَاقِرِ النَّاقَةِ الأُولَى التِي جَلَبَتْ   عَلَى ثَمُودَ بِأَرْضِ الحِجْرِ خُسْرَانَا
قَدْ كَانَ يُخْبِرُهُمْ أَنْ سَوْفَ يَخْضِبُهَا   قَبْلَ المَنِيَّةِ أَزْمَانًا فَأَزْمَانَا
فَلا عَفَا اللهُ عَنْهُ مَا تَحَمَّلَهُ   وَلا سَقَى قَبْرَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَا
لِقَوْلِهِ فِي شَقِيٍّ ظَلَّ مُجْتَرِماً   وَنَالَ مَا نَا ظُلْمًا وَعُدْوَانَا
يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا   إِلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رِضْوَانَا
بَلْ ضَرْبَةً مِنْ غَوِيٍّ أَوْرَثَتْهُ لَظَى   مُخَلَّدًا قَدْ أَتَى الرَّحْمَنَ غَضْبَانَا
كَأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ قَصْداً بِضَرْبَتِهِ   إِلاَّ لِيَصْلَى عَذَابَ الخُلْدِ نِيرَانَا

أَرَى الخَيْرَ فِي الدُّنْيَا يَقِلُّ كَثِيْرُه * * * وَيَنْقُصُ نَقْصًا وَالحَدِيْثُ يَزِيْدُ
فَلَو كَانَ خَيْراً قَلَّ كَالخَيْرِ كُلِّهِ * * * وَأَحْسَبُ أَنَّ الخَيْرَ مِنْهُ بَعِيدُ
وَلِـ(ابْنِ مُعِيْنٍ) فِي الرِّجَالِ مَقَالَةٌ * * * سَيُسْأَلُ عَنْهَا والمَلِيْكُ شَهِيْدُ
فَإِنْ يَكُ حَقًّا قَوْلُه فَهِيَ غِيبَةٌ * * * وإِنْ يَكُ زُوراً فَالقِصَاصُ شَهِيْدُ
وَكُلُّ شَيَاطِيْنِ العِبَادِ ضَعِيفَةٌ * * * وَشَيْطَانُ أَصْحَابِ الحَدِيْثِ مَرِيْدُ

المنارة للاستشارات
www.man

ومن أشهر شعر بكر بن حمّاد قصيدته التي قالها في رثاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ينقض بها قصيدة الشاعر الخارج عمران بن حطّان الذي امتدح قاتل عليّ بن أبي طالب[7]:

مظاهر اهتمام علماء الجزائر بالحديث:

يمثّل الحديث النبوي في المنظومة العلمية الجزائرية ركيزة أساسية، وهو جزءٌ مهمٌّ من البرامج التي يتلقّاها الطّلاب في المعاهد والمدارس بعد حفظ كتاب الله تعالى وإتقانه، وما ذلك إلاّ ترجمةٌ لحالةٍ من التعلّق بالشخصية النبوية عجيبةٌ جداً، وهو يعكس التوجّه الأثري في ممارسة الشعائر التعبّدية، التي تستمد مرجعيتها من مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، الذي يحرص في أصوله العامة على التمسّك بالنصوص الشرعية والآثار النبوية.

ومن مظاهر العناية بالحديث التي تميّز بها أهل الجزائر ما يأتي:

1-تلاوة صحيح البخاري في المساجد:

فقد كان من جملة العادات الرمضانية في الجزائر خلال العهد العثماني الحرصُ على تلاوة صحيح البخاري في الجوامع الكبيرة بحضور العلماء والكبراء والعامة، "وكان لا يتولّى إملاء الحديث إلاّ كبار العلماء وذوو الأصوات الحسنة والجهورية"[8]، في جوّ احتفالي تسوده البهجة والسرور، فيرشّ ماء الورد، وتتلى جملة من الأدعية المناسبة، والتلاوة تبدأ في شهر رجب وتختم في ليلة السابع والعشرين من رمضان[9]، ومن دلائل الاهتمام الكبير بصحيح البخاري أنّ المجاهدين الفاتحين الذين كانوا يحاصرون وهران سنة 1205هـ لتحريرها من الإسبان، قاموا بتلاوة صحيح البخاري إلى أن ختموه بأمرٍ من باي معسكر محمد بن عثمان الكبير، الذي كان يجلّ صحيح البخاريّ إجلالاً كبيراً، قال الزياني: "ويوم دخوله لوهران بأهله، ومخزنه بغاية نيله، قدَّم أمامه العلماء والصّلحاء، وبيدهم صحيح الإمام البخاري تبرّكاً وتيمّناً بفضله"[10].

وعادة تلاوة صحيح البخاري اندثرت من مساجدنا أو تكاد، فلا نعرف الآن مسجداً بقيت فيه سوى بعض الجوامع القليلة منها الجامع الكبير بالعاصمة، الذي يختم فيه الصحيح في السابع والعشرين من رمضان من كلّ سنة، وهي عادة -لعمري- عظيمة لو حافظنا عليها، وهذّبناها من كلّ الشوائب، وانتقلنا بها من مجرّد التلاوة إلى الشرح والمدارسة حتى يكون نفعها أعظم.

المنارة للاستشارات
www.mar

2-**حفظ الحديث**:

مثلما تميّز علماء الجزائر في حفظ القرآن الكريم، فإنّهم مهروا في حفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وكانوا يتنافسون في حفظ الصحيحين والسنن والموطّأ، فهذا الشيخ محمد بن عبد الرحمن المولود سنة 1270هـ (كان حيًّا سنة 1325هـ) كان يحفظ نحو الخمسين متناً منها كتب الحديث الستة[11]، كما حفظ العلاّمة الإبراهيمي الصحيحين والسنن والموطأ كما جاء في سيرته التي كتبها بخط يده، ولا يستغربنّ أحدٌ من هكذا أخبار فقد حدّث الإبراهيمي أنّه كان يحفظ كلّ ليلة قبل نومه مائة بيتٍ من الشعر[12].

كما أفترضُ أنّ الشيخ أبا راس الناصريَّ كان من حفّاظ الحديث لاشتهاره بلقب "الحافظ"، فقد حلاّه به العلاّمة مرتضى الزَّبيديّ صاحب تاج العروس، ودعاه به كلّ من ترجم له من المتقدّمين والمتأخرين، وللشيخ قصصٌ في الحفظ عجيبةٌ ذكر بعضها في سيرته "فتح الإله ومنتُه".

وممّن اشتهر بحفظ الحديث دون التأليف فيه عالمان من عائلة المشرفي بمدينة معسكر، وهما قرينان وكانا مقرّبين جدّا من الأمير عبد القادر وعضوين بالمجلس الأميري العالي وهما الشيخ محمد الطاهر المشرفي، وابن أخيه زين العابدين بن عبد الله المعروف بـ(سَقَّاط)، هذا الذي كان مُسْنَدَ المغرب الأوسط في القرن الثالث عشر، لكثرة ما يحفظ من الحديث الشريف، غير أنّه رحمه الله لم يشتهر بالتأليف فيه[13]، رغم أنّ له إجازات من علماء جزائريين وغير جزائريين.

3-**تدريس الحديث**:

كان طلاّب العلم الجزائريون بعد أن يفرغوا من حفظ القرآن الكريم يتوجّهون نحو الحديث النبوي فيحضرون حلقاته على يد كبار المشايخ، وكان "صحيح البخاري" أهمّ الكتب التي كانت تحظى بالدّراسة، وهو الكتاب الأكثر تداولاً في أيدي العلماء وطلبة العلم، حتى قيل إنه كاد ينافس المصحف في كثرة الاستعمال[14]، وقد اشتهر الإمام ابن زاغو التلمساني (845هـ) بتدريس الصحيحين، قال أبو الحسن القلصادي (891هـ): "قرأت عليه بلفظي رواية جميع صحيح البخاري، ومن أوّل كتاب مسلم إلى أثناء باب الوصايا"[15].

المنارة للاستشارات
www.mar

ومن العلماء الذين اشتهروا بتدريس الحديث النبوي أبو العبّاس أحمد المقّري التلمساني (1041هـ) الذي تصدّر لتدريس صحيح البخاري في الجامع الأزهر حتى بهر الحاضرين، كما درّس الحديث في المسجد النبوي بالمدينة، وفي مسجد بني أميّة الكبير بدمشق أملى صحيح البخاري أثناء درسٍ كان يلقيه بعد صلاة الصبح، ولمّا كثر الناس حوله خرج إلى صحن الجامع، وحضر درسَه غالبُ أعيان دمشق، وجميع الطلبة[16]، وممّن اختصوا بدراسة البخاري وتدريسه أبو الحسن عليّ بن عبد الواحد السجلماسي الجزائري المتوفى سنة (1045هـ) الذي ختم قرأ صحيح البخاري سبعة عشرة مرة قراءة بحثٍ وتدقيق، ثمّ أصبح من أهمّ مدرّسي الجامع الصحيح[17].

وقد حرص رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على جعل الحديث النبوي ركيزة أساسية في برامجهم الدّراسية فالشيخ ابن باديس درّس موطّأ مالك بضع عشرة سنة ليختمه في 12 ربيع الثاني سنة (1358هـ) الموافق 1 جوان 1939م بعد سنة من ختم تفسير القرآن الكريم[18]، وكذلك فعل الشيخ مبارك الميلي، أمّا البشير الإبراهيمي فلتعلّقه الشديد بالحديث وأهله اقترح تسمية (دار الحديث) على درّة مدارس جمعية العلماء بتلمسان تفاؤلاً بدار الحديث الدمشقية.

4-شرح الحديث:

شرح الحديث ظاهرةٌ متعارفٌ عليها في الثقافة الإسلامية، فقد تصدّى العديد من العلماء في المشرق والمغرب لأحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وأقبلوا عليها بالشرح والإيضاح والتفسير في دروسهم وكتاباتهم، وربّما كان من المثير هنا أن أذكر أنّ من أوائل شرّاح صحيح البخاريّ عالمٌ جزائريٌّ اسمه أبو جعفر أحمد بن نصر الدّاودي التِّلمساني المتوفي سنة (402 هـ)، بل إنّ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي يصرّح بأنّ الإمام الدّاودي التلمساني هو أوّل من شرح البخاريّ في كتابه المسمّى (النصيحة في شرح صحيح البخاري)، رغم أنّ جمهور العلماء يقولون بأنّ الإمام الخطابي (388هـ) هو أوّلُ من تصدّى لصحيح البخاريّ بالشرح في كتابه (أعلام الحديث)، فإذا صحّ ما ذكره الشيخ الجيلالي فإنّه لشرفٌ عظيمٌ لأهل الجزائر[19].

أمّا عبد العزيز دخان فذكر في دراسته عن الإمام السنوسي وجهوده في علم الحديث أنّ الإمام الخطّابي رغم أسبقيته في شرح صحيح البخاريّ إلاّ أنّ شرحه لم يستوفِ كلّ الصحيح، ببلوغه ثلاث مجلّدات فقط، أمّا شرح الإمام الدّاودي فشمل الصحيح كلّه، ونُقولُ ابن حجرٍ عنه

المنارة للاستشارات
www.man

في الفتح تدلّ على ذلك، فقد ذكره بالاسم (547) مرة، وخصّه بلقب (الشارح)، وهو لقبٌ لم يطلقه ابنُ حجرٍ على غيره من الشّراح[20].

ومن معاصري الدّاودي الأديب الحسن بن رشيق (463هـ) الذي شرح موطأ الإمام مالك، لكنّ هذا الشرح يبقى في حكم المفقود مثل الكثير من كنوز التراث الجزائري[21].

وللشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الحق اليَفُرَنِيّ التلمساني الندرومي (625هـ) شرحٌ لغويٌّ لأحاديث الموطّأ، بتفسير غريبه، وإعراب ألفاظه، سمّاه (الاقتضاب في غريب الموطّأ وإعرابه على الأبواب) وهو مطبوع في مجلّدين، وقد حظي الشيخ اليفرني بثناء كبار العلماء فوصفه الحافظ شمس الدين الذهبي بـ(العلاّمة)، وقال "كان معظّماً عند الخاصة والعامة، فاضلا"، وزاد "كان من أهل التقشّف والتصنيف فصيحاً لسنا"[22]، وله أيضاً (المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار) وهو أهمّ كتبه وأشهرها، وموضوعه شرح الموطّأ انطلاقاً من منتقى الباجي والاستذكار لابن عبد البر، مضيفاً إليهما فوائد من التمهيد، ومن مشارق الأنوار للقاضي عياض وغيرهما، والكتاب ما يزال مخطوطا محفوظاً بخزانة القرويين والرباط بالمغرب[23].

ولـمحمد بن مرزوق الحفيد (842هـ) شرحٌ لصحيح البخاري سمّاه (المتجر الربيح، والمسعى الرجيح، والمرحب الفسيح، والوجه الصبيح، والخلق السميح، في شرح الجامع الصحيح)، وله (الأنوار الدراري في مكرّرات البخاري)، أخذ عن ابن مرزوق وابن خلدون والحافظ العراقي والفيروزأبادي صاحب القاموس وعن الحافظ ابن حجر[24].

كما قام الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي (القرن 13 هـ) بضبط مختصر صحيح البخاري للشيخ ابن أبي جمرة وشرح أحاديثه، وسمّى شرحه: (فتح الباري في ضبط ألفاظ الأحاديث التي اختصرها العارف بالله ابن أبي جمرة من صحيح البخاري)، توجد ثلاث نسخٍ منه في الخزانة العامة بالرباط، وقد تحدّث مؤلّفه عن دوافع تأليفه فقال في مقدّمته: "علمُ الحديث من أجلِّ العلوم قدراً، وأعلاها منزلة وخطراً، وكان الناسُ مقبلين على قراءة جامع البخاري عموما، وعلى ما اختصر منه الشيخ العارف بالله ابن أبي جمرة خصوصاً، وكانت قراءة الحديث تحتاج إلى شروط جمّة، وتلزمها آداب مهمّة، أعظمها الاحتراز من الخطأ في إعرابه، ومن اللحن في مضبوط ألفاظه، فتحرّك من الغرام السّاكن لتلك الأماكن"[25].

المنارة للاستشارات
www.man

ومن أبرز شرّاح الحديث في العهد العثماني أبو الحسن علي الونيسي، من كبار فقهاء المالكية، وعالمٌ بالحديث ورجاله، تولّى قضاء قسنطينة، ومن آثاره (شرح صحيح البخاري) في 12 جزءاً.[26]

وفي نفس الفترة يظهر اسم العلاّمة أبي راس الناصري (1238هـ) الذي شرح صحيح البخاري مرتين، الأول سمّاه (النور السّاري في شرح صحيح البخاري) في ستة أسفار، والثاني (السّيل الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري) في أربعة أسفار، وشَرَحَ صحيح مسلم في ثلاثة أسفار سمّاه (مختصر المعلم في شرح مسلم) ولعلّه اختصار لشرح الإمام المازري المسمّى (المعلم بفوائد مسلم)، كما شرح الشمائل المحمدية للإمام الترمذي سمّاه (نزهة الفضائل في شرح الشّمائل)[27].

كما تولّى العلاّمة عبد الحميد ابن باديس شرح الحديث النبوي في مقالات نشرها في جريدة (الشهاب) التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأعيد نشرها في كتاب سنة (1983م) بإشراف وزير الشؤون الدينية -يومئذ- الشيخ عبد الرحمن شيبان، تحت عنوان (مجالس التذكير من كلام البشير النذير).

5-التأليف في الحديث:

لعلماء الجزائر مؤلّفات عديدة في الحديث النبوي تمثّل وعياً كبيراً بأهمّية السنة النبوية بوصفها الأصل الثاني من أصول التشريع الإسلامي، كما تعكس تعلّقاً شديداً بشخص الرسول عليه الصلاة والسلام، إلى حدٍّ تتبّع جميع تفاصل حياته، وتقصّي شمائله الخلقية والخلقية، ومن عجائب هذا الباب ما كتبه أحمد المقّري في (فتح المتعال في مدح النعال) يصف فيه نعال المصطفى صلى الله عليه وسلم، و(أزهار الكِمامة في أخبار العِمامة ونُبَذ من ملابس المخصوص بالإسراء والإمامة)، وهو بحثٌ في وصف عمامة النبيّ وملابسه، و(الدّر الثمين في أسماء الهادي الأمين في الأسماء النبوية[28].

ومن أشهر الحفّاظ الذي كتبوا في علم الحديث وأقدمِهم أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي البجائي (581هـ)، وهو إشبيلي نسب إلى بجاية لطول إقامته إلى أن وافاه الأجل بها

المنارة للاستشارات
www.man

رحمه الله، قال رابح بونار: "كان المترجم حافظاً عالماً بالحديث وعلله، عارفاً بالرجال، موصوفاً بالخير والصّلاح، والزهد والورع، ولزوم السنة، مشاركاً في فنون الأدب وقول الشعر"، له الأحكام الكبرى والأحكام الصغرى كلاهما في الحديث[29].

أمّا الخطيب القسنطيني الشهير بابن قنفذ (809هـ) فكتب (شرف الطالب في أسنى المطالب) وهو شرح لمنظومة ابن فرج الإشبيلي في ألقاب الحديث، وكتاب (الوفيات) وهو من كتب الطبقات يضمّ تراجم المحدّثين إلى غاية عصره، مرتبة بحسب تواريخ وفاتهم، وكتاب (أنوار السعادة في أصول العبادة) يشرح فيه حديث "بني الإسلام على خمس"[30].

وفي نفس الفترة تقريباً عرفت تلمسان عالماً كبيراً اشتغل بالحديث وهو الشيخ أبو عبد الله أبركان المزيلي الراشدي (868هـ) الذي كتب في رجال الصحيحين كتابين ما يزالان مخطوطين وهما (الزندُ الواري في ضبط رجال البخاري) و(فتح المُبْهَم في ضبط رجال مسلم).

وللشيخ محمد بن علي المعروف بالقوجيلي (1080هـ) منظومة سمّاها (عِقدُ الجُمان اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع)، وهي منظومة في مخرّجي أحاديث الجامع الصحيح للبخاري، وعدد الأحاديث التي لكلٍّ منهم، ومن هو المكثر ومن هو المقلّ في السّند على ما أورده ابن حجر، وزاد عليه القوجيلي التعريف بالوفاة وتكملة تراجم الرواة، وهذه المنظومة ما تزال مخطوطة في دار الكتب المصرية كما ذكر ذلك أبو القاسم سعد الله[31].

وللعلاّمة محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ تقريباً) ثلاثة مؤلّفات حديثية وهي (الأربعون المغيلية) أو (أربعون حديثاً) على نهج الأربعين نووية، وهو مخطوط بمركز أحمد بابا بتمبكتو (دولة مالي)، والمكتبة الوطنية بباريس، وله (عمل اليوم والليلة)، جمع فيه الأذكار والأدعية النبوية، و(مفتاح النظر في الحديث) في أبحاث مع النووي في التقريب[32].

وممّن ألّف في الحديث محمد بن أبي شنبٍ (1929م) فرغم أنّه ليس من علماء الحديث إلاّ أنه كتب بحثاً قيّمًا قدّمه لمؤتمر المستشرقين المنعقد سنة (1905م) بمدينة الجزائر تحت عنوان: (تاريخ الرجال الذين رووا صحيح البخاري وبلّغوه إلى الجزائر واختلاف طرق الرواية لذلك).

المنارة للاستشارات
www.man

6- **الإجازات والأثبات:**

ومن العادات التي كانت شائعة بين طّلاب العلم وحتى بين العلماء هي طلب الإجازات والشغف بها، طمعاً في الإسناد العالي، وتوثيقاً للنسب العلمي، ولهذا نجد الكثير من علماء الجزائر يتنقلّون بين الشيوخ تحقيقاً لهذه الرغبة ولو كانت المسافة بينهم مئات الأميال، ويدوّنون الكتب التي قرأوها والشيوخ الذين درسوا عليهم في برامج يسمّونها (الأثبات)، قال أبو القاسم سعد الله: "وكانت الأَثْباتُ ورواية علم الحديث وإجادة السند ممّا يتفاخر به العلماء ويتباهون به فيما بينهم.. وكان يكفي أن يقال عن فلانٍ إنّه حافظ بلاده حتى تشرئب إليه الأعناق وتقطع إليه المسافات لنيل الإجازة منه ورواية الحديث وغيره عنه"[33].

وأشهر الكتب التي شكّلت محور الإجازات والأثبات كتب الحديث الستة والموطأ، وألفية العراقي ونخبة الفكر لابن حجر، فمن أشهر العلماء الذين دوّنوا فهارسهم وأثباتهم أبو العباس أحمد الغبريني وتضمّن مروياته المسندة إلى الموطأ، والصحيحين، والسنن الثلاثة، ومسند الإمام أحمد، وكتابي التمهيد والاستذكار لابن عبد البر[34].

أمّا العلاّمة أبو راس الناصري (1238هـ) فألّف كتاباً في مروياته عن الحافظ مرتضى الزّبيدي الذي التقاه بمصر سمّاه (السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى)[35].

وكان بعض علماء الجزائر يتفننون في كتابة الإجازات العلمية، فهذا أحمد المقّري التلمساني (1041هـ) يكتب إجازة في الحديث منظومةً، جاء فيها:

وَقَدْ أَخَذْتُ جَامعَ البُخَاري * * * ومُسْلِمٍ عَنْ حَائزِ الفَخَارِ

عَمِّي سَعِيْدٍ وَهوَ مَمَّنْ يُدْعَى * * * بِالتَّنَسِي"[36] قَدْ أَفَادَ الجَمْعَا

عَنْ حَافِظِ الغَرْبِ الرَّضِي أَبِيْهِ * * * عَنِ ابْنِ مَرْزُوقٍ عَنِ النَّبِيْهِ

ولم تكن العناية بالحديث وطلب الإجازة فيه خاصة بالرّجال فقط، ولكن هناك من النساء الجزائريات من كان لهن شأنٌ في حفظ الحديث وروايته، ومنهن المحدّثة (رقية بنت عبد القويّ

المنارة للاستشارات
www.man

بن محمد البجائي) (874هـ) من فضليات النساء، نشأت بمكة المكرّمة، أجازها الحافظان العراقي والهيثمي وابن صديق والزين المراغي وأجازت هي السّخاوي صاحب الضوء اللامع[37].

الخاتمة:

لا نملك في الختام إلاّ أن نعيد التذكير بأهمّية الجهد العلمي الذي بذله علماء الجزائر في مجالات المعرفة المختلفة، وبخاصة في مجال خدمة السنة النبوية، جمعاً وتأليفاً وحفظاً وتحقيقاً وشرحاً.. فقد أكّد أولئك الأعلام أنّهم لم يكونوا أقلّ شأناً من نظرائهم في أرجاء العالم الإسلامي الفسيح، ولم يتأخّروا عن خدمة سنّة المصطفى صلى الله عليه وسلّم، منذ أن دخل الإسلام ديارهم إلى يوم الناس هذا.

وإذا كان هؤلاء العلماء الأعلام قد أدّوا رسالتهم، ونصحوا لأمتهم، فإنّ واجبنا تجاههم أمران اثنان:

أوّلهما: التعريف بمحدّثي الجزائر، وتحقيق تراثهم وإعادته إلى الحياة، عبر تحقيق المخطوطات، وتثمين مجهوداتهم، وتذكير الأجيال الناشئة بما قدّموه للسنة النبوية.

ثانيهما: مواصلة نهجهم في خدمة السنة المطهّرة، والاهتمام بصناعة الحديث رواية ودراية، تأكيداً للنسب العلمي المتصل الذي بدأوا مسيرته، وهو ما نجد بعض ثماره اليوم في كليات الشريعة بمختلف الجامعات الجزائرية.

هذا ما قصدتُ تسطيره ولله الأمر من قبل ومن بعد، عليه توكّلتُ وإليه أنيب.

المنارة للاستشارات
www.man

الهوامش:

[1] مقدمة ابن خلدون، المطبعة البهية المصرية (دت) ص394.

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ 1981م (26/2).

[3] أبو عبد الله البكري: المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، (734/2).

[4] العِجلي: معرفة الثقات، تحقيق عبد العليم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، 1405هـ، 1985م، (254/2).

[5] ياقوت الحموي: معجم البلدان (تاهرت)، دار صادر، بيروت، 1397هـ، 1977م، (8/2).

[6] ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت) (125/2).

[7] بكر بن حمّاد: الدر الوقاد، جمع وتقديم محمد بن رمضان شاوش، دار البصائر، الجزائر، ط2، ص66-69.

[8] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (26/2).

[9] رحلة ابن حمادوش، تحقيق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص257.

[10] الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران، وأنيس السّهران، في فتح وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، اعتنى به عبد الرحمن دويب، دار المعرفة، الجزائر، 2013، ص264.

[11] د.عبد العزيز دخان: محمد بن يوسف السنوسي وجهوده في خدمة الحديث النبوي الشريف ، دار كردادة، الجزائر، 1432هـ، 2011م، ط1، ص31

[12] المرجع السابق ص31

[13] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1403هـ، 1983م، ط3، ص303.

[14] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (26/2).

[15] رحلة القلصادي تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1985م، ص103.

[16] د.سعد الله: المرجع السابق (29/2).

[17] د.عبد العزيز دخان: المرجع السابق ص32 وتعريف الخلف

[18] مجالس التذكير من كلام البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1402هـ- 1982م، ط1، ص330.

[19] وللدّاودي -أيضاً- كتاب النّامي شرح فيه الموطّأ، انظر عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1384هـ، 1965م (361/1).

[20] د.عبد العزيز دخان: محمد بن يوسف السنوسي وجهوده في خدمة الحديث النبوي الشريف ص23 وما بعدها.

[21] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص150.

[22] أبو عبد الله اليفُرَني: الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب (مقدّمة المحقق)، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، السعودية، 1421هـ، ط1، (23/1).

[23] الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب (مقدّمة المحقق) ج1 ص29.

[24] عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام (210/2)، وفيه أنّ شرح البخاري موجود في مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة.

[25] د.أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (2/ 30).

[26] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص346.

[27] أبو راس الناصري: شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف ضمن كتاب أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة للدكتور يحي بوعزيز دار البصائر، الجزائر، 2009م، (236/2).

المنارة للاستشارات
www.man

[28] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (29/2).

[29] الغبريني: عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص73 وما بعدها.

[30] معجم أعلام الجزائر ص268.

[31] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (32/2)، أورد له ابن ميمون شعراً في تحفته، وذكره صاحب طلوع سعد السعود، وأصله من مدينة البرج بمعسكر..

[32] المغيلي: شرح التبيان في علم البيان (مقدمة المحقق)، تحقيق أبو أزهر بلخير هانم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م، ط1 ص35

[33] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (33/2).

[34] الغبريني: عنوان الدراية ص311 وما بعدها.

[35] فتح الإله ومنته في التحدّث بفضل ربي ونعمته ، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتّاب، الجزائر، 1990م، ص179.

[36] التَّنَسِيّ هو ابن الحافظ، عن أبيه الحافظ محمد التنسي (899هـ) كما في البيت الموالي.

[37] معجم أعلام الجزائر ص35.

المنارة للاستشارات
www.man